شذرات حول الخيال

إدوارد بوند، ترجمة: كفاح الفني

كتبت هذه «الشذرات حول الخيال» للمركز الدولي لدراسات الدراما في كلية التربية بجامعة سنترال إنجلاند (University of Central England) في بيرمنجهام/ إنجلترا. وإدوارد بوند عضو مؤازر في المركز.

[1]

لا ينبغي وصف عقل الطفل بأنه بقعة ضوء تزداد مساحتها كلما تعلّم الطفل، فعقل الطفل بناء كلي يستدخل العالم شيئاً فشيئاً كما لو أنه ضوء يتزايد وهجاً من قبل أن يعرف الطفل هذه الكلية عن جهالة، لكن مع المعرفة، فإنه يدركها معرفياً. ومنذ لحظة البدء يحتاج الطفل إلى تفسير كامل للعالم. فبالنسبة له، فإن إشكاليات المعرفة الوجودية والقيم كافة تستحضر من خلال الأحياز والأجسام، وعلى الطفل أن يمنحها المعنى والقيمة من معرفته المحدودة.

[2]

عالم الطفل بلا معنى، لأنه يقدم له كذلك (خالياً من المعنى)، فيسأل الطفل عالمه كل الأسئلة الأساسية الموجودة في الفلسفة الكلاسيكية والحديثة. أسئلة مثل: لماذا يوجد الـ (أي شيء) ولا يوجد الـ (لا شيء)؟ وكيف لنا التصرف؟ ولماذا هناك الخير والشر؟ أسئلة لا إجابات لها، إنما هي شطحات عقل حكيم.

[3]

عالم الطفل فسيفساء، فكل غرض وكل حدث هو قطعة، وكل قطعة هي جزء من الكل الذي هو المعنى الكلي، فالقطع لها معناها كجزء من الصورة، ولها معناها في الصورة ككل، كما أن لها معنى ناتجاً من وجودها في ذاك الإطار.

[4]

عالم الطفل خريطة. يتعلم الطفل أن يحيا في العالم عبر «ترسيمه»، وخريطته للعالم هي وسيلته للوجود. وليس بوسع الطفل أن يفكر ويتحرك دون خريطته للعالم، وعلى الخريطة أن تتضمن وصفاً لكل من الأمكنة المعروفة وغير المعروفة، فكل شيء يمكن ترسيمه في الخريطة، وكل ما لا تتضمنه الخريطة سيبدو كثقب في العدم، وعقل الطفل كالمسطرة، لا يمكن لجزء منها أن يتحرك إن لم يتحرك الكل.

[5]

بالنسبة للطفل، فإن اللامعروف مكان يجب توصيفه، ومكان للقيم، حيث لا يوجد شيء هو لا شيء. فالفراغ يتحرك، واللامكان هو مكان ما. وعندما يذهب الطفل إلى هناك، يجد أن اللاشيء1 غير قابل للمعرفة، فهو في كل مكان.

[6]

يمكن مقارنة خارطة الطفل بخرائط البحارة القدماء للعالم، إذ تظهر فيها المناطق غير المعروفة من العالم كمواقع للدهشة، الدرادو (مدينة الذهب)، وأتلانتا، والمسوخ الخطرة، وحافة العالم. فلو لم تجد مثل هذه الأشياء موقعها على خريطة البحارة القدماء، لما كان من الممكن عندها أن يبحروا بين الموانئ التجارية. على العقل البشري أن يعرف غير المعروف كسياق للمعروف، فما يصنع طبوغرافية اللاشيء هو شرط توازنه.

[7]

إن معرفة المعاني الموضوعية للأشياء تتطلب مفاهيم بعيدة عن عقل الطفل، لكن على خارطته أن تجعل وجوده في العالم ممكناً، ولذا فهي منطقية، وعملياتية، ونفعية، ولا يمكنها أن تكون كذلك إلا إذا

كانت تخيلية، فالمدهش الرائع يتلبس الممل، والأيديولوجيا تقلب ذلك لاحقاً، وهذا هو الإرهاب النفسي، ولعله يمر دون ملاحظة كما لو كان شأناً من شؤون الحياة اليومية.

[8]

العلم خالٍ من القيم، إنه إذ يدرس العلم بذاته (كما هو) وليس كما لو كانَ مصدراً للقيم، وعادة ما يجد العلم الماس أثناء دراسته الصخور، لكن هنالك قيمة لكل ما هو في الخيال، ولا يمكن تخيل شيء دون قيمة لكل ما هو في الخيال، ولا يمكن تخيل شيء دون قيمة، فالقيمة بالنسبة للخيال هي تماماً كالاحتكاك (المقاومة) بالنسبة للّمس.

[9]

لا يمكن فصل القيم عن المقيِّم، لأنه لا بد من أن يكون الشيء ثلاثي الأبعاد لكي يُرى، وحتى تلك الأشياء التي تبدو مسطحة (ذات بعدين)، فإن لها بعداً ثالثاً هو المسافة من الناظر. المقيِّم يمكن أن يكون مراوغاً ومتهكماً وغير واثق، لكن لا يمكنه أن يهرب من القيمة، فتبجيل الشيء أو التهكم به يحملان في طياتهما قيمة، ولهذا السبب فالطفل جزء من خارطته للعالم، فهو مدون على الخارطة، والخارطة مدونة فيه، ولا يستطيع أن يفكر أو يتحرك دون أن يكون جزءاً منها، فهو يفكر ويتحرك عليها، والقيم تجعل الخارطة ذات عمق تشاركي مع كل ما هو موجود. وتنص الخارطة على حق الطفل في الحياة، وهذه هي سلطتها لذاتها ولصانعها. فالطفل والعالم وحدة واحدة (كائن وحيد الخلية)، والطفل يخلق العالم، عالمه، والعالم هو موقع براءة الطفل (الراديكالية) الجذرية.

[10]

خريطة الطفل للعالم تنتجه ضمن العملية نفسها التي ينتجها فيه، ينتج الطفل من خلال خارطته التي يبنيها عن العالم بالسيرورة نفسها التي يخط بها الطفل خارطته عن العالم، هذه العملية تمتد على امتداد الحياة. وإن تمزّقت الخارطة تمزّق صانعها.

[11]

الخيال يخلق ذاتاً متحولة وثابتة في آن معاً، ففي الوقت الذي «يتضمن» فيه التغير، فإن القاص يبقى ثابتاً، والذات هي القصة التي تتخيل نفسها، وتعير الذات انتباهاً واهتماماً بالقصة لأنها هي المقيم أيضاً، والقصة تسترعي انتباه الذات لأنها هي المقيِّم أيضاً.

[12]

ليس هنالك من صورة في الدماغ عن الحالة القلبية للإنسان، ولا من شبح في الآلة. ولا روح في الخيال. ولا مركز في النفس. والدماغ غرفة (عقدة) ارتباط معقدة مع العالم وذاته. والدماغ يهيكل خارطة وليس الشخص، وليس من أنا موحدة، إنما هناك جوقة هي الذات بجمعيتها، والخيال جانب من قدرات الدماغ في النشاط الواعي، وتتمحور في البداية حول حاجات الطفل الجسدية ولاحقاً حول حاجته الذهنية كذلك. ارتباطات الدماغ هي التي تؤدي قصة الخيال، والخيال في العالم هو المسرح، وقصته هي الدراما.

[13]

كل القيم يجب أن تكوّن بالأصل بمرجعية من الجسد كإحساس، وقد تغير هذا عندما صار للدماغ نشاطه الخاص والمستقل عن دوره في رعاية الجسد. فالتفكير مجسّد ومذهّن، ولهذا فالخيال يجمع كلاً من المنطق (العقل) والقيمة.

[14]

إحدى صعوبات التغير التي قد تطرأ تكمن في كون الذات جزءاً من خارطة العالم، وهذا أكثر جوهرية من الملكية المادية في العالم، لأن العالم الموجود كنص في الخيال قد صنع من قبل الخيال. نحن نتخيل الواقع لكنا لا نصف، ونقيم العالم دفعة واحدة؛ فالخيال متحول ودائم الاستجابة للمتغيرات المادية والاجتماعية، لكنه متحول فقط عبر بقائه ثابتاً، لأن الذهني والمادي الموضوعي مرتبطان، وكذلك القيم في الخيال التي لا تغير (تشوه) القصة فحسب، بل تستطيع تغيير مظهر الأشياء أيضاً.

[15]

وبما أن الدماغ عضو فيزيائي، فإنه عرضة للعطب، وعندها قد يجن ولا يصون الخارطة التي خلقها الخيال، وهذا ليس فشلاً للخيال. عندما يجن الخيال، فإنه لا يفقد سيطرته على الواقع أو يطمسه، إنما يلعب معه ألعاباً خطرة. الجنون الأول خلل عضوي أو كيميائي، والجنون الثاني (أي جنون الخيال) فهو الجنون الحقيقي، وقد يكون خلاّقاً نافعاً وإحدى مناطق الدراما، وإذا ما كان لا يزال فاعلاً، فإنه في بيئة أو مجتمع مجنونين سيبدو عاقلاً.

[16]

الجنون هو إفراط في العقلانية. والمجانين هم الذين قصروا اعتمادهم على منطقهم. وفي الجنون ينفك الارتباط بين المنطق والقيم، وتعطى الاستقلالية للمنطق، وهذا يحدث عندما يفشل الخيال –الذي عادة ما يجمع المنطق والقيمة– في خلق قصة تفسر أياً كان السبب الأولي للجنون، وهكذا فإنه من الحكمة حينها أن يعتمد (الإنسان) على المنطق والحفاظ على وجوده من الجنون. نصبح مجانين فقط لأن الخيال قد أعطى الأولوية للمنطق. عند حدوث أزمة، فإن ذلك يمكن أن يحبط الفعل، إذ يؤدي إلى إعادة تقييمات في الخيال؛ الأمر الذي يعتمد على الدرجة التي تصبح فيها الخارطة الحالية غير عملية بشكل كبير، وتفتقر إلى المنفعة أو الرؤيا في هذا العالم الموضوعي.

[17]

اللاشيء مصدر تهديد عظيم ومُلح للطفل، فالطفل يرسم خارطته ويخلق عالم أحداثه وأشيائه بحضور اللاشيء الذي يمكنه أن يكون مهّدداً أو مولّداً، وفقط بعد أن يستوعب الخيال اللاشيء يمكنه أن يستخدم الواقعي لاستدعاء اللاشيء.

[18]

خارطة الطفل عن العالم كذبة، وكذلك هو. وكذلك توصيفه للعالم ولذاته كذب. ومع ذلك، فإن العقلانية تُنتج ويتم التحقق منها عبر

الكذب. يعلِّم البالغون الطفل أنسنة العالم، فيقصّون عليه حكايات كاذبة، فأن تحب طفلاً في هذا العالم يعني أن تكذب عليه، وإذا لم يُكذب على الطفل، ولم يَكذب هو على نفسه، فإن عقله سيفقد الاتساق، ولن يستطيع تحمل الواقع. ولعل الحقيقة الأنطولوجية الوحيدة لدى الطفل تكمن في اللاشيء، والحاجة الدائمة للوصف، والتقييم، لعل الخارطة كذبة، لكن الذهن بلا خارطة هو ذهن توحدي (Autistic)، فنحن نؤنسن أطفالنا بالكذب عليهم، أما طفل الذئب فسيرسم خارطة عالم الذئاب.

[19]

وصف الذات لذاتها والعالم -وإن كان كذباً- فهو ليس زائفاً، لكن البالغين قد تواطئوا مع الزيف. لاحقاً يستثني كثير من الأكاذيب الحقيقية، إلا أن التقييم الذي يعد كذوباً يصمد. في البدء كانت الكذبة، وهي مصدر كل القيم، خارج حدود الخيال، فالعالم ليس إلا فوضى مرتبة، ساعة يد يصنعها مختل ويقرأها مهرج، والعقل بلا قصة فاقد للاتساق، فالقصة تتضمن المعنى، وتجعل من الخارطة قابلة للسفر فيها وعبرها. ولاحقاً، عندما تصنف الأيديولوجيا الخيال كواقع موضوعي، فإنها تجعل من العقل فوضى منضبطة.

[20]

يفهم الطفل العالم بمرجعية ذاته. «الأشجار تتحدث» . . لاحقاً يعرف الطفل أنها لا تتحدث، ولكنه في اللحظة التي تقوم فيها شجرة أو حيوان أو أي شيء مشابه بالتحدث، فإنه يضع علامة على الخارطة، التي ستبقى موقعاً لعلامات أخرى. فأن تتحدث الأشجار، فإن هذا يجعل من الناس أشجاراً ناطقة، ينطقون أشياءً غريبة. اللاهوتيون يسمون حديث الأشجار دماغ الآلهة، والسياسيون يسمونها صوت الشعب.

[21]

لدينا قيم لأننا كنا أطفالاً، وقدرتنا على التقييم تأتي من طفولتنا. فأي شيء أو توجه أو حدث يصبح ذا قيمة فقط عندما يكون جزءاً خلاقاً من قصة، وأن يكون خلاقاً هنا يعني أنه يتحدث بشكل تشاركي (تبادلي) مع باقي الأجزاء الأخرى من القصة. فالطفل يعطي قيمة لكل شيء، فعلى سبيل المثال يستخدم الطفل قطعة خشب على أنها شيء آخر في قصة. وهنا يُحمَّل معنى قطعة الخشب بمعنى دورها في القصة وبقصصيتها. وتصبح لها الهالة التي أوجدها «وولتر بنجامين» للفن، ليس لأنها قطعة خاصة من الخشب، بل على العكس تماماً لأنها أي قطعة خشب. لاحقاً، يُعلم الطفل أن يضع لقطعة الخشب سعراً بدلاً من قيمة، وعندها تصبح من ضمن الممتلكات -فلنقل جزءاً من البيت- ومن ثم فإن الأيديولوجيا تجد طريقتها لتثبيت الملكية بإعادة الأصل -أي القيمة غير المسعرة- معدلةً، وعليه فإن قطعة الخشب هذه قد تحول إلى صورة عن صلب المسيح، وتُحمَّل بذلك ذاك الكم الهائل من قيم تلك الثقافة، ومن ثم يمكن لنموذج مصغر لصليب أن يعلّق على جدار البيت، ليعطي قيمة خاصة للمال الذي تم شراء البيت به، أو أي ممتلكات أخرى، (تؤخر) (تعيق) (تعيد) الأيديولوجيا عقل البالغ إلى عقل طفل من أجل السيطرة عليه.

[22]

يتعلم الطفل النامي موضوعية زيف خريطته عن العالم. فحاجة الخيال للحقيقة تأتي من باب الحيطة، إلا أنه يشتهيها، لأنها مسرحة اللاشيء الذي يقف قبالة الذات.

[23]

الطفل مصدر القيم، والذات كذبة، فلو لم تكن كذلك لما احترمنا الحقيقة، ولا أعني هنا احترامها كبديل عن الكذب، بل لأنه لن يكون لها القيمة الوجودية التي من خلالها تبرر الأكاذيب ذاتها للطفل، ينبغي أن يكون للحقيقة قيمة الكذب، لأن الخيال يحتاج للحقيقي والواقعي؛ أي أن احترامه للحقيقة تغذيه الأكاذيب، ففي البداية الأكاذيب وحدها من ينتج معنى الحقائق بوضعها في القصة، فهي إنسانيتنا الأولى، ولا ينبغي تجاهلها عندما نمتلك الفهم العقلاني الأعلى، لأنها وسيلتنا لاكتساب ذاك الفهم، (الوعي) وأكاذيب الطفولة ملحة كما القواعد في اللغة، على الرغم من كونها لفظية، ولا يعني هذا أن الخيال قواعد المنظور، إنما هو عرافته، والبالغون لا يتحدثون كما الأطفال، ويوماً بيوم ينسون لغة طفولتهم؛ هذه اللغة تبقى لغة الخيال، وهي كالألعاب النارية التي تبهرج الأشياء المملة بالضوء.

[24]

الطفولة أكثر قدماً من البلوغ، وللطفل فإن البالغ يأتي لاحقاً ويكون بمثابة الطفل، البالغ ينسى، أما الطفل فيذكر، وكأن طفلاً يحيا في البالغ ويعطيه الحياة عبر تذكره، لأن الطفل قد خَبر اللاشيء، ولا يمكنه نسيانه، أما البالغ فقد قايضه (أي اللاشيء) بخَبزه اليومي.

[25]

يأخذ الخيال اللاشيء إلى الحكاية، إلى موقع الأحداث والأشياء، وإدراكنا المبكر للاشيء يجعلنا بشراً، ليس لأننا نرسم الخارطة على اللاشيء، بل لأننا نأخذ اللاشيء إلى ذواتنا، وكأننا نرسم الخارطة على الجانب الأقصى من الرقعة. يتقصى (يتتبع) الخيال الخارطة باستمرار، وإلا فإن اللاشيء سيمحوها. فليس هنالك ما هو طي النسيان، ومعارف جديدة تكتب على مخطوطة الخارطة، وكذلك (على) اللاشيء. اللاشيء دائماً، جديده وقديمه، يمنحنا الممكنات عبر ما يتطلبه من انتباه واهتمام.

[26]

قصة الخيال ليست حقيقية، ولكن دونها لن تكون الحقيقة حقيقية، ولن يكون للصدق أي دلالة، فالحقائق الحسابية لا بد أن تتخيل قبل أن يثبت أن لها معنى (وليس محض استخدام). الخيال يحتاج المنطق، لكن المنطق لا يستطيع أن يتخطى الخيال واللاشيء، فالمنطق ليس إلا حفلة تنكرية للاشيء. الحاصل الحسابي للأشياء حقيقة، لكن الشيء منضو في الخيال، وبهذا المنحى فإن الحاصل شيء كذلك. [وإذا ما كان الخيال موزعاً إلى هذا الحد فسيبدو مختفياً (قيد الاختفاء)، أليس كذلك؟]، وكأن وظائفه تضطلع بها وسائل أخرى، ذهنية على الأرجح. فإذا ما تم تخيل وحش خيالي يقوم بعمليات حسابية، فإن هذا سيجعله جزءاً من عالمه وجزءاً من عالمنا

بالضرورة، فليس للاشيء من اهتمام أبعد (من إمكانية اختفاء الأشياء) (أي أن الأشياء قد تختفي). الحقائق في العالم والخيال هي خريطة هذا العالم، وليس أيٌّ منهما مكاناً للآخر، والهوة بين السبب والنتيجة لا تملأ بالعادة الهيومية، أو لعبة بلياردو، أو أحد التصنيفات الكانطية. فكل نموذج (مثال) مصان في الخيال، والحقائق كافة تدخل الخيال من بوابة واحدة هي معنى الحكاية. أما المتفرجون فليسوا إلا القابعين في الجحيم.

[27]

ينمو الطفل وخارطته تصف العالم بموضوعية أكثر. العالم يتصرف بموضوعية، وللمنفعة فيه قيمة عملياتية، والمنفعة الموضوعية لا تحل محل تقييم الخيال. الخيال هو من يقيِّم الحقائق داخلياً.

[28]

التجربة الحسية الجسدية ليست نفعية، فالشهية لا ترغب في التغذية (الطعام)، والمنفعة أول ما تدوَّن في الخارطة، وتجربتنا الحسية هي أداء هذا النص، وهذا هو الذي يجعلنا أفراداً، ويفسر هذا التعدد من الرغبات والتصرفات. وإلا لكانت لنا أرواح منسوخة عن روح واحدة، ولكان كل منا تمثلاً للحالة الما قبل إنسانية في ذهن الآخر.

[29]

الخيال أولي بالنسبة لذهنه، والجسد ثانوي بالنسبة للخيال، وكل ما عدا ذلك فهو في المكانة الثالثة. وكل شيء محبوك في الحكاية المتخيلة، ولا نصبح بشراً إلا عندما نقر بالخيال لدى الآخرين.

[30]

حكايا ألف ليلة وليلة صورة عن فعل الخيال، وفيها ما يشير إلى العلاقة بين القصة والموت. فالخيال يضاعف2 نفسه عل الراوية شهرزاد تحيا، والمصغي ليس خليفة شهريار واحد، فلكل حكاية خليفة شهريار آخر، والملك (الحقيقي) هو الراوي، فالمتلقي يحكي الحكاية، والحكاية هي التي تصغي.

[31]

خيال الطفل يكتب تعاليمه الأولى على خريطة هي الذات، ويكتسب الطفل حقائق جديدة. الطفل النامي هو من يكتب المزيد من الحقائق على رقعة الخريطة، والحقائق تكتسب من وضعها في (نسق قصصي). وكل شيء موجود في الخيال.

[32]

يؤمن الطفل بأنه إله، والإله هو الكائن الوحيد الذي يعرفه الطفل، ويؤمن الطفل بأنه هو الذي يخلق العالم، ولولا هذا الاعتقاد لدى الأطفال لما كنا بشراً. ولأن الطفل يعتقد أنه إله فهو يتصرف كشيطان أيضاً، وإن لم يتصرف على هذا النحو لما كنا بشراً. وعندما يفقد أي شخص (شبهه الإلهي) ألوهته، فإنه يفقد إنسانيته، ومسؤوليته عن العالم، وعندها سيتصرف كشيطان، يتصرف كإله. لكل الأطفال براءة إله وبراءة الشيطان، والسلطة هي التي تجعل من أحدهم ابناً للنور، والآخر أميراً للظلام بإعطائه اللقب الرسمي، وكل المهام المنوطة باللقب.

[33]

قصة الطفل تؤول السلطة والواقعي، ولذا فإن خياله غير قادر على ترتيب قبول دائم من قبل البالغين، ولا على أن الاكتواء بالنار غير مؤلم، إلا أن الطفل يجعل من خضوعه أمراً يخصه ولا يتعلق بالسلطة. وبهذا، فإن الخضوع جزء من ذات الطفل، والحقيقة أن خضوع الطفل لا يأتي استجابة للسلطة، بل استجابة للعالم، فالأشجار تحكي لغة الطفل، وكذلك الوقائع تتحدث لغة الخيال. والخيال العاقل يمقت الحقائق ويشتهي الآخر. ويتعلم أن يتوقع الواقعي، ولعله يصدم، لكنه لن يتفاجأ أبداً.

[34]

المادة هي المصدر، المعرفة والتجربة الأولية للخيال، وتنجز المادة قوتها التَشكُّلية عبر الخيال، والالتقاء المباشر والمتبادل بين المادة والخيال هو المعرفة المثلى عندما لا تلوثها الباطنية، فقد ضللت الأيديولوجيا المذاهب الباطنية الألمانية إلى درجة جعلتها تصف اللاشيء بالإله، وإلى جعل الإله متجلياً في كل شيء، إلا أنه من الجلي أن العالم وحده من يستطيع إيجاد الإله وخلقه. أما في الأيديولوجيا، فالحقيقة ليست إلا نسخة أخرى من الكذب.

[35]

عندما يكون الإقناع غير ممكنٍ بالخيال، فإنه يعيد ترسيم الخيال، وهو يفعل ذلك بعنف، وهو أيضاً مصدر للعنف.

[36]

يرسم الطفل خارطة العالم بأنسنته، وكل ما هو مرعب في المجهول هو عدوه – فالرعب يعرف الطفل. في الخيال يتصرف الطفل كأنه في بيته، فيضع الأشياء كما لو أنه يضعها على مائدة سيجلس عليها ليأكل، ويتخيل الطفل العالم ليكون فيه، وله الحق والحاجة في أن يقيِّم نفسه كمصدر للقيم، وليس مجرد محط للإشباع.

[37]

الطفل يملك العالم الذي يخلقه، إلا أن كل شيء في العالم مملوك من قبل الآخرين.

[38]

لأن خيال الطفل يخلق العالم ويملكه، فإنه يخلق ذاته ويملكها. الملكية الاجتماعية تستدام شرعياً عبر قوى خارج الطفل، وملكية الممتلكات لا توحي فقط بتملك الآخرين، إنما هي مؤسسة عليها.

[39]

ملكية الطفل للعالم ليست ملكية تخيلية، إنما، وبالضرورة، نتيجة طبيعية لوجوده وللملكيته لذاته، وهكذا فإن كل منا يخلق العالم ويبيحه للآخرين، بحيث يصبح ملكاً لهم. فما الذي يحثنا على قبول هذا؟ يتعلم الطفل أن يطيع السلطة وأن يحيا طلباً للمكافأة وتجنباً للعقاب، ولأن ذلك يحدث على امتداد الزمن، فإنه لا يلاحظ

ذلك في حياته اليومية، إلا أن الخيال يلاحظ كل شيء، وكل سطر من الخارطة منسجم مع السطور الأخرى ويعتمد عليها.

[40]

لا بد من حدث أو أحداث، طقس أو طقوس، للعبور، وللصدمة التي يتنحى الخيال عبرها عن المسؤولية عن العالم، ويخسر ممكن ذاته الأعلى، فالتنظيم الاجتماعي هو الوسيلة التي تمكننا من الحياة معاً، وتصون علاقاتنا الاجتماعية أحدنا بالآخر، وكذلك هو الذي يحافظ على علاقة التقنية بالمعرفة، ومع ذلك فالمجتمع ليس ذاتاً جمعية، إنما هيكلية نفعية.

[41]

تمتلك السلطة المجتمع كما يمتلك الطفل ذاته، كيف إذن تحقق السلطة هذه الملكية؟ الإخضاع يحدث بفعل القوة كما هو الحال في العبودية، أما التعاون فيحتاج إلى أيديولوجيا ليتحقق، والتملك المستبد (المسيطر) يستخدم الأيديولوجيا ليربط بين التكنولوجيا وذاته. الأيديولوجيا تقلب أكاذيب الطفولة رأساً على عقب، وتسقطها على عالم البالغين، وهذا هو (التطفيل) وليس الإنضاج، فحقيقة الأيديولوجيا الوحيدة هي التقنية، وحتى في هذا فهي غير ناجعة أو (فاعلة).

[42]

تكتب السلطة عالم البالغين فوق خريطة الطفل، والحقائق (المحقونة) حديثاً تقصي القيم القديمة، ولا يبدو هذا كارتداء ثياب جديدة، إنما كزرع عظم جديد تحت اللحم، لأنه عبر إعطاء القيم تتسنى للذات أن تمتلك ذاتها، ولا بد أن تعني ملكية المجتمع بالضرورة امتلاك الآخرين.

[43]

تخلف السلطة الخنوع بطرق متعددة: الحاجة، الثواب، الطموح، الخوف، سلطة أو ملكية محدودة، وترتبط هذه العناصر (الميكانيزمات) بعضها ببعض عبر الأيديولوجيا التي تحيل الرغبة إلى محض توجه أو نزعة.

[44]

الأيديولوجيا هي خريطة الطفل للعالم بعد أن تم نقلها إلى عالم الملكية والسلطة، وفيما كانت خريطة الطفل كذبة حقيقية، فإن الأيديولوجيا قد حولتها إلى حقيقة كاذبة. لقد تخيل الطفل، وهذا ما جعل منه إنساناً ووجودياً، فالأيديولوجيا دوماً تعكس هذه الصيرورة، لكن جزئياً، ومن باب النفع قد تؤنسن، إذ تقوم السلطة التنظيمية بتضمين التقنية في أشكال الملكية الموجودة، فالتقنية إذ تتطور وتبادر فهي، بشكل تصاعدي، تخل بأشكال الملكية القائمة. وكأن الآلات الجديدة تطلب قصصاً جديدة، فكل ما هو جديد –آلة كان أم طفلاً– يتطلب قص حكايات جديدة، والقصص التي يتطلبها الأطفال والآلات تؤنسن، أما تلك التي تتطلبها السلطة فتكون من أجل بقاء أشكال الملكية القائمة مفسدة. يعيش الأطفال بعالم الآلات الناطقة، أما في المجتمعات المتملكة، فإن الآلة هي التي تصدر الأوامر للبالغين، ولا يكون العكس صحيحاً إلا في مجتمع عادل بحق. فالآلات في صف الأطفال والخيال، ولا يُحدث التطفيل (تحويل إلى طفل) إلا عندما تملك السلطة التقنية.

[45]

الأيديولوجيا تُمأسس الطفل النامي للعالم المملوك، وتسقط خريطة الطفل على الواقع الاجتماعي، وتقلب معانيه. فالأمة الآن هي «الأرض الأم» أو «الأرض الأب»، فنحن قوميتنا أو عرقنا، والقياصرة والقادة الآخرون هم الآباء. والقوى المسلحة هي أذرع الأخت، والعلاقة بين الأشياء الواقعية تجعل رائعة، والتاريخ يقدم مؤسطراً، وكثيراً ما يُعَبَّر عن ذلك وكأنه الدين، فالمسيحية تسقط عالم الطفل العائلي وما فيه من توتر على الكون وكأنه نموذج للعائلة المقدسة، وتسفّه حكايات أوديب، وأنتيغوني يصبح مذهباً أن يقتل الإله الأب الإله الابن بدافع الحب، وبينهم تقف الأم العذراء، فالكنيسة تُمأسس الخيال وتساعد على إخضاعه للملكية الاجتماعية، والأديان الأخرى تستخدم (اللاشيء) وحكايات الأطفال للغرض ذاته. فليس الأيديولوجيا سوى وثنية أخرى، فقد تم إحراق الهراطقة حفاظاً على الملكية، وللغرض ذاته تقوم الدولة الحديثة بالسجن والقتل أحياناً.

[46]

عندما يملأ الطفل (المساحات غير المعروفة في) خارطته بالوحوش، فإنه، وبلا حكمة، يعد نفسه لتلقي الأيديولوجيا، الأيديولوجيا تدخل هذه المساحات وتستعمر الوحوش الموجودة فيها، فيحيا البالغون ويموتون بمخاوف (أشباح) الطفولة، ويمضون أو يضيعون حيواتهم في أرض «لا أحد».

[47]

وحتى يومنا هذا، فالسياسة هي طفولة عالم البالغين، والآلات هي ألعابهم، وأسلحتهم، فليس الزي العسكري، والشارات، والمراتب، إلا ثياب أطفال يرتديها البالغون، وميدان المعركة هو أرض الحضانة، والسجون ثكنات الجند، ومعسكرات الإبادة ومنصات الإعدام ليست سوى بيوت الدمى الخاصة بهم.

[48]

الأسلحة والآلات الممتلكة ذات استقلالية أعلى من الدمى، وأكثر قدرة على إيهام الخيال والخضوع للأيديولوجيا، وقد يستحوذ الخيال عليها بطريقة أقل إبداعاً، وعندها فقط يمكن أن يخضع للملكية. ولعل الخضوع لم يكن في البداية إلا دفاعاً غبياً ضد اللاشيء، وعندما يكون الخيال مستقلاً، فإن علاقته بالآلات وكل الأشياء الأخرى تتأنسن، وحينها تصبح الذات ذاتها، وليس موقعاً للاشيء، ولكون الذات أكثر فاعلية وذات أفضلية بقدرتها على الإخلال بالملكية وبسيطرتها (الملكية) على الخيال، فلا بد من أن تسخر الملكية كل الآلات كأسلحة لكبت الخيال، وللقتل، وإذا ما اضطرت للحفاظ على ذاتها.

[49]

السلطة تفسد الخيال بجعله مُخافاً، وتجعل من اللاشيء موقعاً

للأعداء وليس موقفاً للتراجيديا والخلق كما يفعل الطفل. والفساد ليس إلا رغبة التخلي عن الذات والتنازل عن الاستقلال لصالح السلطة. فالمذعنون مسؤولون ليس أمام الممارسة بل أمام الطاعة التي هي واجبهم الأوحد، فالطاعة هي توحد البالغ، والمذعن لا يستعمل خيالاً إلا بطريقة محسوبة سلفاً، لأن السلطة تحتله، والذين يحيون بهذه الطريقة عادة ما يعتقدون أنهم الأكثر قرباً من حقيقتهم وذاتهم الحقيقية، في حين أنهم أقل ما يكونون ذواتهم. فهم من يموتون للملك والدولة والقائد والعرق والإله والحضارة؛ أو بمعنى آخر للملكية، والدمى، وحكايات الجنيات. إنهم عبيد يموتون دفاعاً عن قيودهم، وقيودهم هي مسابحهم، وبدقة لاواعية تطلب السلطة منهم الطاعة بلا ذات.

[50]

فنحن بشر لأننا كنا أطفالاً ذات يوم، ولأن خيالنا كان خالصاً لنا، عندها كانت الرغبة في الحقيقة أولية على النفعية، واللعب أولي على العمل، وقادر على أن يعلمنا الجد، والحاجة للفن أولية على نزعة التملك، والقصة أولية على الوقائع.

[51]

جينياً نحن بشر، لكننا نتصرف بلا إنسانية، وهذا ليس لأننا كائنات أنصاف وحوش (حيوانات)، فلدينا القدرات، أما كيف سنسخرها

معلمة تنفذ نشاطاً مع أطفالها في روضة مدرسة راهبات مار يوسف.

فهذا معتمد على الخيال والقصة. فلنا القدرة اللغوية –أعضاء النطق والنماذج اللغوية الموجودة في الدماغ– لكن أي اللغات سننطق، فذلك معتمد على أي اللغات نتعلم، وينطبق ذلك على قدراتنا، والملكية تعلمنا تعاليم السوء وأسوأ الدروس.

[52]

الغريزة غير مبدعة، لأنها ثابتة وهي ردود فعل مشروطة (مقرونة) بمحفزات، وهي في أعقد حالاتها ليست إلا تكيُّف وارتجال، ولأن تصرفاتنا ليست غريزية، فنحن قادرون على العيش ضمن أنماط حياة وبيئات مختلفة و(متعددة).

[53]

وكأن الخيال قد تطور عن الغريزة، وكأن البنى الغريزية للدماغ قد تداخلت وترابطت مع دوائر الوعي الأمامية، وكأن الخيال قدرة غرائزية حرة وغير مختصة. فما يُعنى به الخيال فينا تحثه الغرائزية في الحيوان. وإذا ما كان الخيال حرية غرائزية، فإنه بالضرورة حر في أن يكون بنّاءً أو مدمراً، وليس بالضرورة أن يكون إما هذا أو ذاك كما هو الحال في الغريزة. الخيال قدرة غير مهيكلة أو غريزة بلا البنية الغرائزية (القائمة) على الحذر والآمن. وبالتالي، فحرية الإنسان ممكنة فقط عندما تنضوي مخاطرة اللاإنسانية. فإذا لم تكن قدراتنا الإبداعية تنضوي على خطر التدمير، فليس من الممكن لها أن تتعالى على الغرائز وتصبح مبدعة، ولكن لسنا تدميريين لنوازع اجتماعية بيولوجية، وبالتحديد فإن ما تصفه البيولوجيا الاجتماعية بالتسير الغرائزي هو منطقة نحن فيها غير مسيّرين غرائزياً، وأحرار بالضرورة.

[54]

الخيال والمنطق متكافلان جداً، والقصة هي بنية الخيال، تكتسب عبر المنطق وعبر الوصف والتفسير والتقييم. وعندما يكون الخيال تدميرياً، فإنه يستخدم تركيبته التي كانت سابقاً تعرف بالخدمات الغرائزية، فلو كانت لنا أنياب أفعى، لفححنا عندما نغضب، ولكن بما أننا (ما نحن عليه)، فإننا نستخدم قبضاتنا (في حال الغضب). فمقولة أننا كائنات غريزية هي من مقولات الإيمان الأيديولوجي، ولكننا حتى عندما نتصرف كحيوانات فإننا نفعل ذلك بالتحديد لأننا لسنا حيوانات. فنحن لا نلقي القنابل على البشر الآخرين، لأن لنا غرائز شبيهة لغرائز الحيوان، بل لأننا قادرون على التفكير، ولأن هناك تفكيراً يجعلنا نفعل ذلك. فليس بمقدور الحيوانات أن تغير غرائزها، لكننا قادرون على تغيير منطق تفكيرنا والتفكير بطرق مختلفة، المشكلة تكمن في أن التفكير منقاد للأيديولوجية، وهو نتاج للملكية. فنحن نقصف بعضنا الآخر بالقنابل لأننا أحرار في أن لا نفعل ذلك، إلا أننا قد علمنا أن نفعل، وهذا جلي من قدرتنا على صنع ما هو معقد إلى هذا الحد (أي القنبلة)، ولكي نتصرف بإنسانية لسنا مضطرين لكبح جماح الغرائز، إنما لتغيير مجتمعنا.

[55]

الخيال يمنحنا إمكانية أن نكون مسالمين، والملكية تجعل الخيال مدمراً وتحوله إلى أشباه غرائز، وعندما يكون الخيال تدميرياً، فإنه يبدو نقيض الحياة، وهذه هي نصف الحقيقة الكامنة خلف نظرية فرويد

عن تانتوس (إله الموت عند الإغريق)، وبقايا تفسيراتها السياسية في الفاشية. وكل المجتمعات المتملكة أو المالكة لا بد أن تنتج ثقافة موت. وكل من مجتمعات الاستعباد (التي كان بها تملُّك للعبيد) ومجتمعات الاستهلاك الديمقراطية الحديثة، إنما ثقافات موت.

[56]

يرتبط خيال الطفل مباشرة بالمادي، ولذا فهو مبدع. ولا يوجد شخص أو سلطة يتوسط بين خياله والعالم. ويمكن للأطفال أن يساعدوا، أو يشجعوا، أو يعلموا، أو يكرهوا، أو يحبوا، أو يجلدوا، لكن لا يمكنهم الارتداد من الذات إلى الطاعة، ولعل هذا أوضح ما يكون في عملية تعلم اللغة، إذ يتعلم الطفل لغة معلمه ليعبر عن نفسه هو، فلا يوجد مكان على خارطة الطفل يعهد به إلى سلطة شخص آخر. أما بالنسبة للبالغين، فإن الوضع يختلف، وذلك بسبب حاجتهم الماسة للمهادنة بنفعية. وقد تتمكن المهادنة من الاستيلاء على الإبداع، على خريطة البالغ لا وجود لأرض «لا أحد» التي هي مكان المقابر.

[57]

تصدر أفعالنا من تشارك الموضوعي والذاتي، ولا يعني هذا بالضرورة أنه عندما يباشر (س) بفعل (ص) من الأفعال أن يكون ذلك، لأن خيال (س) قد استُحثَ بفعل الأمر ليفعل (ص)، ويتصرف (س) خوفاً من عقاب عدم الإطاعة أو طمعاً بالمكافأة الناتجة عنه، أو ربما لأن الفعل سيمر بلا جدوى في الحياة التي هي المعيل الأعظم للأفعال عديمة الجدوى، فالفعل (ص) ليس مرسوماً على خارطة الخيال، وفي أحسن الأحوال فإن المرسوم على الخارطة هو الانصياع بشكل عام للسلطة، على الرغم من أن هذا قد يمكن السلطة من إصدار أوامر مضادة لإرادة الخيال. وفي النهاية، فإن الأفعال كافة التي تُفعل دون خيال هي أفعال تدميرية.

[58]

«عندما كنت طفلاً تحدثت كطفل، وفهمت وفكرت على ذاك النحو، وعندما أصبحت رجلاً فقد أقصيت الأشياء الطفولية. ولأننا الآن نرى عبر الزجاج على نحو مظلم، ولكن وجهاً لوجه: فأنا أعرف هذا بشكل جزئي، لكن سوف أعرف حتى لو عُرفت»، هذه عبارة أيديولوجية تقلب الحقيقة وتحتويها بشكل مشوه وغير عملياتي في النهاية، فكل الأيديولوجيا التي تخبرك كيف ينبغي أن تحيا، تتوقع منك أن تموت لأجلها، وإلا فكيف تثبت نجاعتها – الأيديولوجيا زجاج معتم.

[59]

ما هو إبداع خيال الطفل؟ تعلُّم الطفل كيف يتحرك، وينطق، ويفهم، ويتصرف، ويحيا قوته واستقلاليته، تأتي جزئياً من تعاون الآخرين، ولكن أيضاً من تعلمه المستمر للطرائق التي يكون الخيال فيها نافعاً، فالقصة تصوغ الموضوعي، والمادي، والواقعي، بالإضافة إلى كونها تنضوي عن معناها. ويوماً بيوم يمتد (يتسع) منظور الخارطة وتتشعب تفاصيلها.

وفهم الأطفال للعالم أكثر عمقاً من فهم معظم البالغين، فالبالغون (عالقون) في فوضى الأيديولوجيا، تائهون في مرآة معتمة، ويجهدون لأجل الفهم. أما عالم الطفل ففيه معانٍ أكثر عمقاً له، لأن أسئلته نابعة منه وليس من السلطة. معظم البالغين يعتقدون أن فهمهم للعالم أكثر عمقاً من فهم الطفل، لأنهم عمليون أكثر، فهم يعرفون كيف يستخدمون الأداة؛ أي الخيال، إلا أن الطفل يعرف أنها أداة.

[60]

يثق الأطفال ويعتمدون على معرفة أبويهم، إلا أنهم لا يزالون يعيشون في خيالهم، فيكبرون ويعبرون من الثقة إلى الحقائق، والملكية تحول الحقائق إلى كذب، وقبل أن يتسنى للطفل أن يحيل الكذب إلى حقائق، فإن الدولاب (عجلة الحياة) يؤدي به إلى عربة المزرعة والمدفع الرشاش. فالسلطة إذ تنظف الشوارع تؤسس أحقيتها في بناء القنابل الهيدروجينية وغرف الغاز. كل من البالغين والأطفال بحاجة إنسانية إلى الخرافي؛ الواقع غير الواقعي، لا يحتاج البالغون إلى الأكاذيب، فالأكاذيب لا تدخل عالم البالغين إلا عبر بوابة الملكية، لأنها وحدها تحتاج إلى الأكاذيب. والبالغون ليسوا مضطرين للكذب بين بعضهم، فكذب البالغين هو كما الجريمة والعنف الاجتماعي عرفٌ من أعراف الملكية.

[61]

يجعل الخيال من استقلال الذات ضرورة. ودون ذلك لن يكون

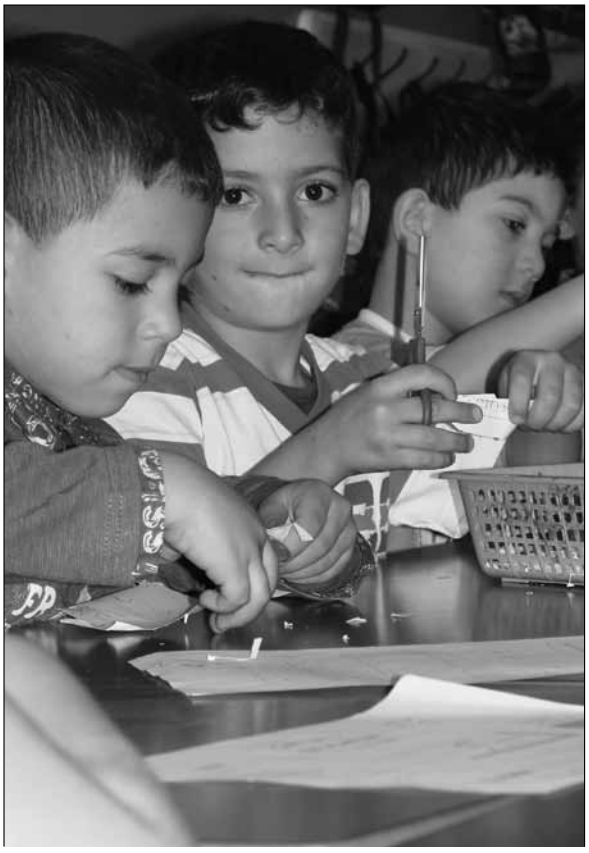

أطفال روضة مدرسة النجاح خلال إحدى الفعاليات.

هناك اتساق، لكن بتملك المجتمع الذات، يخلق الخيال الانصياع مقنعاً بالحرية، وهذا يقود إلى الحرية السلبية التي تنتج الجريمة والتخريب. لا ينتج ذلك عن خلل نفسي أو مكونات غريزية، بل هي نتاجات للخيال في مجتمع أفسدته الملكية، هذه المجتمعات تخلط بين العدالة من جهة، والقانون والنظام من جهة أخرى، وبين التعاون والانضباط، وكلما زادت يمينية المجتمع زاد العنف فيه، فالأيديولوجيات اليمينية تنْتج من التملك الاستبدادي الذي بدوره إما أن ينتج معارضة عقلانية يحثها الخيال، وإما أن يعزز فصلاً خنوعياً بين العقل والخيال، وبين القصة والواقع، وهذه هي الفوضى المنضبطة. وفي النهاية، فإن الأيديولوجيا تخلخل، وليس الانضباط إلا قواعد تصرف (اتيكيت) البلطجة.

[62]

المجتمعات وليس الأفراد من يرتكب الجريمة، وعندما يرتكب أحد ما جريمة، فإنه ينتهك ذاته لذاته، لكن عندما يجرم المجتمع فإنه ينتهك الآخرين، فالمجتمع يحملنا مسؤولية أفعالنا وليس خيالنا، وهذا لأن السلطة تمتلك الناس، ولا بد للناس أن تكون مجرمة، وأن تصنع الآلة وتشن الحروب.

[63]

العقاب هو نتيجة معممة للجريمة، ففي المجتمعات الممتلكة قد ينصاع الخيال للأيديولوجيا فيخسر استقلاليته، ويشارك في جرائم المجتمع، أو قد يختار استقلالية بالطريقة الوحيدة التي تركت مفتوحة من قبل الأيديولوجيا والتفكير الاجتماعي، وهي الجريمة. العقاب يفسد المجرمين، فعندما يجبرهم الخوف أو الحاجة على الاعتقاد أن جرائمهم يجب أن تلقى العقاب، يكونون بذلك قد قبلوا القصة الزائفة للسلطة، التي ليست هي إلا الأيديولوجيا التي تبرر عدم عدالة المجتمع، وتؤدي إلى جرائمه، فليس من الغريب أن الكثير من المجرمين ليسوا إلا يمينيين مندفعين في ردود الفعل مؤيدين للسجن، والجلد، وعقوبة الإعدام. كل الجرائم هي هجمات على عدم العدالة، وهي إيماءات لانتصار الضحية، وبالطبع فإن مثل هذه الجملة (الموقف) تبدو غريبة وبلاً معنى، وهنا تكمن مأساة حالتنا، وكأننا نعيش عبر نظامي تفسير متوازيين للأفعال؛ في الأول يقوم المجرمون بإلحاق الأذى الخطير بالضحايا، وتقوم السلطة بمعاقبتهم فيعم الخير والسلام. وفي الثاني تكون الأفعال الإجرامية ذاتها من النظام الأول، لكن في إطار البنية الاجتماعية الكلية؛ حيث قلبت الأيديولوجيا المعنى لصالح الملكية. والتفسير الثاني ليس تجريداً لأن الأيديولوجيا مجسدة في (كل شيء) الطوب، والطين، والزي، والتوجه، والنفسية، وبذلك فهي تشكل الدافع للأفعال. فالملكية تستخدم التفسير الأول العملي لتبرر سلطتها، وفي الوقت ذاته تعتمد على السرقة (من التفسير الثاني) لتبقى قيد الوجود.

[64]

ليس الرحمة ما ينبغي أن نطالب به إنما العقل. وهذا إجراء جدي لتفكيك فوضانا المأساوية، الأمر الذي سيزداد إلحاحاً لأن التأجير سيؤدي إلى المجاعة والحرب. فلم يعد الأمر مجرد تجنيب أنفسنا المعاناة الآنية، فالتكنولوجيا الآن من القوة بحيث تجعل من لجوئنا إلى اللاعقلاني -كما فعلنا دوماً في الماضي- مستحيلاً. فنحن نمشي نحو الكارثة. وبإمكان المجتمع أن يتحمل مجرميه، لكن لم يعد بمقدوره أن يتحمل قوانينه ولا أولئك الذين يطيعونها.

[65]

الفعل والملكية، الجريمة والقانون، الإجحاف والعدل، متشابكة بفوضى. وعلى الرغم من ذلك، فإن خلف هذين العالمين المتوازيين بساطة غريبة في حياتنا: عندما تُقلب الخريطة ينعكس المعنى.

[66]

الإجرام والتخريب أفعال عنصرية تتحدث باسم السلطة. وإفساد السلطة للخيال هو فعل عنيف ترتكبه السلطة ضد نفسها؛ ضد من يملكون السلطة، وهذا العنف ضد الذات يتم إسقاطه على الآخرين الذين يصبحون عنيفين لقاء المال أو المكافأة والشرف . . . الخ. وكل ذلك إنما هو شكل من أشكال العنف. ويتابع العنف باتجاهين ضد الذات -عبر فلسفة الملكية ومؤسستها- وضد الآخرين. وبهذا، فإن الجريمة تمثلٌ للقانون، والعنف تمثلٌ للنظام، والانضباط تمثلٌ للفوضى، وليس الأمر ببساطة وسطحية: إن القانون هو الذي يحرض على الجريمة أو يحثها كرد فعل، بل أكثر من ذلك، فالجريمة تنطق باسم القانون، وهي روحه، والعنف هو روح القانون والنظام، والحرب روح السلام، والكبت روح الديمقراطية. المجتمعات المالكة لديها أشباه القانون والعدالة والسلام والديمقراطية، وحتى اليوتوبيات (المثالية) بإمكانها أن تؤسس قوانين، ولن تفسد الحقيقة كما تفعل قوانيننا. ففي مجتمعنا، الجريمة حارس ضروري لحماية الممتلكات، والعنف لحراسة النظام العام، وذلك لأن قوانيننا تخدم استبعاد الخيال من قبل الملكية. وبالنسبة لنا، فالجريمة والعنف إنما محاولة العقل -تحت طائلة الضرورات الوجودية للخيال- لحماية نفسه ضد اللاعقلانية.

[67]

يجن المجنون دفاعاً عن فهمه، ويجرم المجرم احتراماً للعدل. فبحسب خرائطهم، الجريمة هجوم على عدم عدالة المجتمع ككل، وحتى حين يكبت الخيال فإن فهمه يبقى واضحاً (وبلا لبس)، ولكن في مجتمعات كهذه، فإن الكثير من الحيوات ليست سوى إنابة (نوائب) موت.

[68]

كل المجرمين أبرياء، وكل المعاقبين فاسدون، إنهم يغالطون في وصف الواقع، وبهذا فهم يثيرون حفيظة آخر جزء بريء في مخيلتهم؛ أي أنهم يثيرون حفيظة أنفسهم، ولهذا نجد أن أغلبهم متطرفون ومهووسو حروب. وبالعقاب ينكر المعاقبون براءتهم، وإلا لتمكنت تلك البراءة من إظهار ذنوبهم لهم، فاستقامة الذات هي كراهية لها.

[69]

في الوقت الذي يمكن للإنسان أن يتصرف فيه بطريقة نفعية، فمن الممكن أن تكون هنالك علاقة وظائفية -وحتى ميمونة- بين

العقل والخيال، وحتى لو كانت آخذة في الاضمحلال، فموظف بيروقراطي مهووس نازي لا يحتاج أن يكون مهووساً في السر، لأنه لا بد من أن يتمكن من التكيف مع القصور الذاتي للواقع، فعلى سبيل المثال سيكون تنظيم جدول رحلات القطارات مهمة أكثر تعقيداً وتطلباً من رش المسافرين بالغاز لدى وصولهم لغايتهم، ولكن المهووس بالسر لا يحاول تكييف الحقائق مع القصة، بل يعاندها ويتصرف كما لو أنه يمتلك العالم ليس كما لو أنه هو الذي أوجده، فليس عليه من مسؤولية اتجاهه، إنما استحقاق اللوم.

[70]

ليكون الخيال خلاقاً لا بد من أن يكتب وبشكل مستمر حقائق وأدواراً جديدة على رقعة الخريطة، ولهذا ينبغي أن يكون مستقلاً، وإذا ما فقد استقلاليته وأراد أن يبقي على عقلانيته، فينبغي ألا تكون هناك حقائق أو أدوات جديدة، وعلى العالم أن يقف جامداً على ما هو عليه. إلا أن الحياة اليومية والتكنولوجيا تطلبان من الخيال التغير حتى ولو كان لأجل الإبقاء على اتساق ما في ظل فوضى الأيديولوجيا، فالخريطة ترزح تحت ضغط تنكره الملكية. وعليه، فإن التوجهات المحافظة لا بد من أن تكون «رد فعل»، وفي أوقات التغير الكبير ستكون فاشية. والخيال المبدع لا بد من أن يكتب الجديد على رقعة الخريطة الموجودة ليكون أكثر عملياً وعقلانياً ومصدراً أعلى لإرضاء الرغبات.

[71]

الفرق بين «ردة الفعل» والتقدمية يكمن في الطريقة التي يؤدي الخيال فيها وظائفه، فإما أن يتنكر للتغير وإما أن يعيد صياغة أو بناء نفسه في ظل التقييد.

[72]

ليس بالضرورة أن تتماثل ردود الفعل والتقدمية دائماً مع الانقسام السياسي بين اليمين واليسار. إلا أن النزعة المحافِظة لا يمكن أن تكون تقدُّمية، وذلك لأنها بالفعل غير قادرة على التخيل، فهي ترى أن الجرار التكنولوجي حصان اجتماعي، والعالِم العقلاني كاهن لاعقلاني، والقنبلة الهيدروجينية كقوس ونشاب للشجاعة. ولكي تبقى الملكية على شرعيتها وثقافتها الداعمة، فلا بد للأيديولوجيا أن تكبت الحاضر ونفعيته، ومع الوقت فإن ضغط الناتج عن مقاومة التغيير يتعاظم لدرجة أن هذه الدعائم -المؤسسة والقوانين- تصبح مستقلة، وتؤدي عنفها الفاشي الخاص، فالمتحمس للقانون والنظام يشبه المُجذِّف بلا قارب يحرك مجاذيفه في بحر مفتوح.

[73]

هنالك صراع أساسي وغير قابل للاحتواء بين الرأسمالية والمحافظة. فهما لا ينتميان للصيغة ذاتها أو النوع ذاته، لأن الرأسمالية ترحب بالتكنولوجيا، والمحافظة تبغضها وتخاف منها بالتأكيد. ويمكن للمحافظة أن تتقبل التكنولوجيا عندما تصبح فاشية، فهتلر جمع بين التكنولوجيا والأسطورة التوتونية بطريقة سخيفة. هذا الانقسام بين الرأسمالية والمحافظة خطير جداً، فديمقراطيتنا الاستهلاكية بنيت على أساس خاطئ، وليس بمقدور أكوام المنتجات الاستهلاكية أن تخفيه. الرأسمالية لا بد من أن تقلص الديمقراطية، ولهذا أصبح عالمنا أكثر بربرية.

[74]

ليس بإمكان المحافظة أن تحافظ على الماضي، وبمحاولتها فعل ذلك فإنها تدمر الحاضر، وللسياسات التقدمية إشكالاتها الخاصة، فعليها أن تتعامل مع وضع اجتماعي معارض لها، وليس بمقدورها أن تفعل ذلك بزرع مجتمع جديد في مخيلة كل فرد، وهذا ما وقعت فيه الستالينية. فعلى الخيال، وبطريقة مستقلة، أن يدون الواقع الجديد على نفسه، فالواقعية الاشتراكية الستالينية كانت «رد فعلية» كما كانت «البيواجتماعية» في إنكارها لاستقلالية الخيال، فعندما تتم محاولة فرض الحرية، فإن مجتمعاً حتى وإن كان أفضل وأكثر تحرراً بموضوعية، يضمحل بسرعة إلى مجتمع أسوأ وأقل تحرراً (لدى محاولة فرض الحرية، فإن المجتمعات التي تتمتع بقدر ما من الأفضلية والتحرر، ترتد إلى مجتمعات أكثر سوءاً وأقل حرية)، فلا يمكن إجبارنا على الحرية لأنها تعلُّمية.

[75]

يعتقد السياسيون أن بإمكانهم فرض واقع التغير على الآخرين، وبالتالي إعادة تنظيم المجتمع، ولكن ليكون الواقع في (الوقت) الحاضر، لا بد من أن يتم تخيله، فلا توجد رصاصة فضية لقتل الماضي، والمجتمع الحر فقط هو الذي يعيد تشكيل نفسه بحرية، وإلى أن يحين ذلك على السياسيين التقدميين أن يجدوا طرقاً لاستلال (لفصل) الحاضر من الماضي.

[76]

لكي يتصرف البشر بإنسانية، لا بد من أن تكون المادة هي مصدر للخيال، فالطفل يعزو أموراً إلى إبداعية المواد، فيرى الوحدة بين الظاهري وبين العميق، ومباشرة يحيل المادي إلى قصصي على خريطة الخيال. وفي مجتمعاتنا، فإن الملكية تتدخل بين الذات والواقع، والأيديولوجيا تصف الواقع بطرائق تدعم تملك الواقع والأشياء وعلاقاتها ومعناها. وعلى عكس الاستبداد العنيف، فإن الديمقراطية تتيح تحويل المعارضة إلى تأكيد صلاحية، والضعف إلى قوة، وهي تفعل ذلك بتملكها للخيال لكن النتائج مروعة.

[77]

الجريمة والحرب تعلَّمان.

[78]

النصب التذكارية علامات تجارية للملكية.

[79]

حولت الثورة الروسية القوة الثورية إلى ضعف، والفاشية حولت ضعفها إلى قوة، كلتاهما ستسقط، لكن من الخطيئة أن تعتبرهما الشيء نفسه.

[80]

بعض الأمراض لها سبب فيزيائي مباشر، وأمراض أخرى (عقلية

وجسدية) تحدث هي أو أسبابها نتيجة اضطراب في الخيال المكبوت. ويتعامل المجتمع مع كلتا الحالتين بالطريقة ذاتها، ولذا فإن علاجه لمرض الخيال المكبوت هو مرضٍ آخر؛ علاج الاضطراب الناجم عن كبت الخيال يعيق ممكنات تقلّب الخيال من أن تمنحنا التصرف الإنساني. وهذه التقلبات يجب أن تختزل لأعراض طبية تحدث عندما يحرم المرض أو العلاج الشخصي المعاني من المسؤولية عن أفعاله. ويمتلك المجتمع أمراضه ويروج لها عبر أيديولوجيا، وبهذا فإن الممارسة الاجتماعية هي التي تروج للمرض والمعاناة. وليس هنالك من شفاء للمشاكل الناتجة عن كونك إنساناً، بل هناك حكايات فقط.

[81]

أحد الأمراض الاجتماعية هو صدمة الأطفال، وأحياناً هناك أسباب طبيعية لذلك، لكن غالباً ما تكون الأسباب كامنة في الطرق التي تعلمنا فيها الأيديولوجيا كيف نعامل أطفالنا، فالطفل يصدم عندما يضطر لمواجهة موقف قاس أو عصي على الاستخدام المبدع في قصته، وعقاب طفل مصدوم إنما يعقد الأمور ويعمق الصدمة، والعلاج الطبي ومحاولة تغيير طبيعة الطفل ليس سوى عقاب حسن النية، يجب أن يُعان الطفل على إعادة مسرحة ذهنه وتغيير قصته.

[82]

وضع البيوت الحديثة إعادة إنتاج للإعياء الاجتماعي الذي كانت تنتجه الكتل والأبراج السكانية القديمة، فلم يتغير سوى التصميم، أما الملكية الاجتماعية فظلت على حالها. ففي مجتمعات الديمقراطية المالكة، يمكن أن تشتري بيتاً شرعياً، لكنك، وبفعل الأيديولوجيا والثقافة، لست حراً إلا بمقدار الحرية التي يتمتع بها سجين في زنزانة، فأنت والبيت ممتلكان من قبل المجتمع، وفي الحقيقة، فإن بيت الرجل الإنجليزي هو سجنه.

[83]

يشير التفكيك إلى أنه لا وجود للانغلاق بالفكر، فلا مكان يمكن للمعنى أن يكون آمناً فيه، ولا للقيم أن تكون مؤكدة، لكن القيم تأتي من الخيال لأنه لا يمكن تثبيتها عبر الانغلاق. السلطة تفسد (الخيال) عندما تفرض الانغلاق وتدعوها بالروح أو الغريزة المتأصلة، والفكر النظري وحودي (غير ثنائي) ولا يستطيع أن يعكس (يعبر عن) نفسه، ولذا فإنه يخلق الانغلاق، والخيال في طبيعته ثنائي ويحتوي على ذاته والعقل، ذاته والمادة، القاص والقصة. وتطلب هذه الثنائية منه الوصف والتقييم، لكي يعرف أن أحد جوانب هذه الثنائية (موجود) (هو) وأن الجانب الأخر (غير موجود) (ليس هو) والعكس صحيح، وواقعية التميز يؤكدها اللاشيء. ويؤدي الخيال وظائفه عبر الذهني والمادي والموضوعي؛ إنه مصفوفة علاقات بين الأشياء والأدوات والضرورات والحرية. والتقييم وثيق الارتباط باستجابات الخيال.

[84]

عندما لا يكون خيالنا مستقلاً، فإننا نتصرف بلا عقلانية. لا يعترف الخيال بالعقلانية إلا أنه يسوغها لغايات وجوده في الواقع. وعندما تفرض العقلانية والأحكام المجتمعية فرضاً، تصبح كابتة وليس من الطبيعي أن يرفض الخيال فروض العقل، إلا أن هذه الفروض ستحرمه من الهشاشة والحيوية التي ينبغي أن تتوفر لديه ليدرك نفسه في الآخرين. الخيال عقلاني وإنساني عندما يعترف بالخيال لدى الآخرين والمجتمع.

[85]

تطمح السلطة لجعل الخيال جامداً عبر أدلجته، فيموضع الحركات النفسية إلى صناعة، واختراعات، ونقود، وأسلحة، وحرب . . . الخ، ولعل أشكال الملكية تتغير، إلا أن سيطرتها على الخيال تبقى ثابتة.

[86]

يتغير مجتمعنا بشكل ديناميكي ويعتمد الاقتصاد على النمو والارتقاء الدائم للتجارة، ولا يعني هذا أننا خاضعون لكل تغير في الموضة، إلا أن مقاومة الخيال للكبت تجد ملاذاً (تعويضاً) في الموضة كالطمع، والحسد، والحسية، والقوة، والخوف، وهذا بدوره يمنح النظام تماسكاً يدفعه لاتساق أقوى ما يكون في إنكاره لحقائق الخيال، ما سيؤدي في النهاية إلى انهياره على ذاته.

[87]

تحرّض التكنولوجيا والتجارة الآن على التغيير بسرعة كبيرة لا يستطيع المجتمع عبرها (أي عبر السرعة) أن يجعل الخيال ثابتاً من خلال الدين، لا بل على العكس من ذلك. وهكذا، فإن الخيال يدفع نحو التغيير الدائم. وهذه الحرية الظاهرية هي حرية كابتة تخدم الأغراض التي يخدمها العنف في الإقطاع والاستبداد، فهي تخضع الخيال إلى رتبة البيولوجي والمستهلك، وإلى الاكتفاء من داخل القصة بدلاً من تغييرها، فتصبح القصة ملك ذاتها، ويصبح موضوعها مستمداً منها، وتكون الذات موضوع الواقع، وكأن الخارطة يعاد رسمها على شكل شبكي (خطوط طولية وعرضية تقسم الخرائط إلى مربعات)، فالتغيرات الخارجية (المدوخة) ليست أكثر من إعادة تلاوة لتعويذة، والحادثة تتكرر بدافع مهووس، ففي كل صباح نحفر على الجثة التي سنعاود دفنها في المساء. ولأن الخيال لا يستطيع أن يكون ثابتاً، فإنه ينكبت نحو الطائفية والقومية العنصرية والتدين والحديث القديم (New Ageism)، والتقسيم الطبقي (الاجتماعي) -الأمور لا تنفصل عن الديمقراطية الرأسمالية، حيث يحول الخيال لموقع العنف.

[88]

تسيطر الرأسمالية على الناس عبر امتلاك خيالهم، ففي الماضي كان الخيال منظماً ومرتباً جداً، والآن هو مستفز، ومدفوع نحو الاستهلاك الذي سيصبح الأداء الذي قد يرضي السلطة. أما الفقير والمعدم وغير الاستهلاكي، فهو، بشكل طبيعي، سينتج أداء أقل إرضاء للسلطة، وكأن الفقير يستهلك الفقر، والاستهلاك يخترق المجتمع بكامله ويصبح بنية -ليس بالضرورة نفسية- تتفشى كالمرض، والرأسمالية الاستهلاكية «تستخيل» المادة.

[89]

الملكية الآن كابتة كما كان الدين محموماً يحرق الساحرات في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وحدث هذا عندما طرأت تغيرات في المؤسسات التكنولوجية لسلطة المُلكية أدت إلى أزمة، فكلما ازداد

تسارع التغيير ازداد الدين هوساً، والديمقراطية الرأسمالية حلت محل ذاك النظام القديم، وها هي الآن تدخل أزمتها.

[90]

بإمكان المجتمعات المالكة أن تتحمل مجرميها، لكنها لا يمكن أن تتحمل حروبها. والتكنولوجيا والتعقيدات اللوجستية (التسوقية) والعسكرية الماحقة كلها أمور تشكل عبئاً على قدرة الأيديولوجيا من أن تسيطر على الواقع، ألا وهي القدرة على السيطرة على الواقع، فإعطاء القنابل للسياسيين والجنود، يشبه إعطاء أعواد الثقاب لأطفال يلعبون في مصفاة بترول. يؤجل النصر المشاكل ولو لوهلة، لكن مشاكل السلم هي مشاكل الحرب.

[91]

يفسر الأطفال الكوني بشكل محلي، ويفسرون المحلي بشكل كوني، فكلاهما للأطفال سيان، ولذا فإن كل تصرف يتصرفونه يرتبط بالعالم، ومن الطبيعي لديهم أن يتخذوا موقع المسؤولية عن العالم، والمسؤولية لديهم ليست بأقل جدية عما هي لدى البالغين، ويجد الطفل في قصته كل ما وجد بليك (شاعر إنجليزي) في حبة الرمل. صغر عالم الطفل لا يجعل منه أقل تحملاً للمسؤولية للعالم، بل على العكس، فهي تضخمها لأنه وكما هو الإله، فهو يرى كل شيء فيه، فيرى سقوط العصفور والأذرع المنتزعة للدمية فيه، وعندما تحرم السلطة خياله من الاستقلالية، فإن الطفل يفقد مسؤوليته عن العالم وعن ذاته كذلك، فنحن نتصرف بمسؤولية بطريقة تجعل أولئك المتأثرين بأفعالنا يقرون بها كمسؤولين عندما نكون مسؤولين عن العالم، ديمقراطيتنا تحرمنا من كلا المسؤوليتين، فرسمياً نحن نملك ذواتنا، لكن السلطة تملكنا وجودياً. فـ«العبيد» والحيوانات غير فاسدين، لأنه ليس مطلوباً منهم التصرف بمسؤولية، ولكن مواطني الديمقراطيات يمكن إفسادهم لأنهم يتصرفون بمسؤولية، إلا أنهم لا يملكون ذاتاً يستطيعون من خلالها التصرف والفعل، فعندما يأكلون أو يَلبسون فكأنما يطعمون ويُلبسون كائناً غريباً يقف خارجهم، فهؤلاء الناس يعيشون حياتهم كَما لو كانوا تماثيل مريضة، ويحيون حيواناتهم وكأنهم تماثيل مريضة.

[92]

فهل بإمكان الفساد أن يكون متجذراً لدرجة لا يمكن فيها عكسه؟ تدعم السلطة الفساد بالعسكرية، والانشقاقية، والقومية، وبكل هوس الأيديولوجيا وعواملها وملحقاتها النفسية. لكن السلطة تفتقر للأمان، وعندما يفشل الواقع بدعم تهيؤات (فانتازيا) الأيديولوجيا، عندها يدفع ذلك العقل للجنون بفعل متطلبات العيش، وإذا ما امتلك المجنون قوة سياسية، فإنه سيدافع عن جنونه لدرجة تمكنه من التلاعب في الواقع، إلا أن الناس وحدهم من قد يجنوا، أما العالم فلا، وعندما يكون الواقع في الخيال على شفا الانهيار، تعبر الحقائق عن ذاتها. وفي النهاية، فإن الواقع يفرض ماديته على الخيال، والعالم ليس بملجأ آمن للمجانين.

[93]

خريطة الطفل هي خريطته لذاته والعالم ولذاته في العالم. وخريطة السلطة لا يمكن أن تكون بهذا الاكتمال، وليس بوسعها أن تصف اللاشيء بكلانية، لأنه قد نُص عليه في خريطة الطفل الأولى، وفيه الذات واللاشيء، وهو الشيء الوحيد الذي لا يتغير، ويرزح في العقل كتساؤل وخشية، لا تستطيع السلطة إسكاته بالأجوبة أو القوة، للذات قوة اللاشيء، وللسلطة ضعف العدم.

[94]

تفتت السلطة الخيال في متاهة الخفي والواقعي، وهذا يخلق الأيديولوجيا الشرسة، ويبقى الإبداع كي يغرزه معلمون غير معترف بهم، والفوضويون، والفنانون، وبشكل سلبي المجرمون الذين جنوا بلا توجه سياسي. فهؤلاء وإن لم يدخلوا الخيال أحراراً من الأيديولوجيا، إلا أنهم لا يخلطون مع أطلال الأيديولوجيا المدينة المثالية؟

[95]

يفرض الواقع علينا الأزمات والدراما، ويمكن أن نتوقعها عبر فن الدراما والفنون الأخرى، ولا يمكن تحرير الجنون بالعقل، فهو نوع من أنواع الفساد أو الصدمة، ولا يمكن شفاؤه بالعقاب، أو العقاقير، أو السجن، أو الإعدام. ويمكن عقلنة الجنون بالحكايا فقط.

[96]

يمكننا أن نكون إنسانيين –وكل تصرفاتنا إنسانية– إذا امتدت استقلالية خيال الطفولة إلى البلوغ. ويبدو هذا الأمر مناقضاً لمرحلة البلوغ التي لا تعتمد على الخيال والمسؤولية فحسب، بل أيضاً على التنظيم والانضباط والواجب. ويخلق الأطفال العالم من خلال تصورهم الخاص له، لكن هذه الصورة مأخوذة من العالم، وعندما يقوم المجتمع بتصحيح تلك الصورة، ويفرض عليها صورة الملكية، فإنه يغطي وجه حياتنا بقناع الموت، ومبرره الأكبر لفعل ذلك هو العملياتية. تخلق الأيديولوجيا مشاكل مثل العنف والجريمة، وتسير هذه المشاكل وفق ديناميكيتها الخاصة وتصبح مشاكل عملياتية، ولهذا، فإن أكبر فانتازيا الأيديولوجيا يصبح مدعوماً من قبل الحدس العقلاني اليومي، فنحن لا نموت كل يوم لأجل بلادنا، لكن كل يوم نتسوق، ولا نريد أن نتعرض للسطو في طريقنا إلى السوق. إلا أن الحس العام لا يستطيع تفسير تناقضات حياتنا التي يحيرها التصرف الإنساني. فالناس ذوو الحس العام غير معدين. وعندما تخرج الأشياء عن سياق السوي، فإنهم يفقدون الفهم. وبذلك، وفي أي أزمة فهم، فإن من يسقط في أخطر حبائل الأيديولوجيا، هم الناس ذوو الحس العام الذين هم في قلب التطرف.

[97]

لا يوجد مجتمع سمح لاستقلالية الخيال أن تحيا من الطفولة حتى البلوغ إلا بإشكال تخدم السيطرة والتعويض كالرياضة، والتهيؤات الدينية، والحرب. وتسلع الرأسمالية الآن هذه الأشكال، وهي تمتدح الرياضة على الفن، لأن الرياضة أقرب إلى الحرب.

[98]

إن مصدر الأنسنة –وبغض النظر عن سماته الانتقالية التاريخية– هو

الخيال. تستبدل السلطة المسؤولية والمبادرة بالخضوع، ما يقلص الإبداع إلى حد إدارة المنفعة الموجودة، ويمكّن التعليم من أن يخلق فهماً لا تستطيع فيه السلطة أن تجعل ذاتها تقمصاً للذات. وليفعل ذلك، لا بد من مسرحة الخيال، وإن لم يفعل، فإنه يصبح تلقيناً وليس تعلماً. والتلقين (التوجيه) مدمر عندما يكون الخيال غير مستقل، فيمكن أن يلقن الإنسان بكيفية بناء الطوب، لكن لا يوجد من يقول له أن يبني مشفى أو غرفة غاز إلا الخيال. نحن نتصرف بإنسانية عندما يقر خيالنا بالخيال في الآخرين، إلا أن الخيال القادر على فعل ذلك هو الخيال المستقل، لأنه القادر على الإقرار بالإنسان في ذاته. وفي المجتمع العادل، نحن نرسم خريطة خيالنا على العالم الواقعي، وعندها ستعيد أفعالنا وحتى اقتصادنا ومؤسساتنا إنتاج أنسنتنا.

[99]

يجب على التعليم أن لا يمسرح الخيال بشكل دائم وظاهر، إنما بالقدر المحتاج ليحرر العقل كي يتلقى بشكل مبدع أي (إبداع)، (ليتقبل) كل المعارف الأخرى التي يحتاجها. وفي حياة كل فرد فرص كفيلة بتغير معنى حياتهم، وكذلك الأمر في التعليم أيضاً. فعلى المسرحة أن تظهر الخيال في المجتمع، وأن لا تقدمه لاحتياجات السلطة، والانضباط، والتنظيم، والجبرية، إنما تقدمه للخيال في الآخرين، ولا يوجد درس أكثر جدية من هذا الدرس، والضرورات المأساوية تتجاوز جبرية أي سجن، أو مدرسة أو بيت إصلاح، أو ثكنة جند. مسرحة الخيال ليس خياراً سهلاً، فما هو الاندفاع التي ستؤدي بها صدمة قوية قصيرة بالنسبة لعظمة تعلم المأساة وقداستها، فالأولى تحدث مجرد عدم راحة جسدية، بينما تتطلب الثانية معرفة العقل. وما الذي يمكن أن نكسبه من صدمة قوية قصيرة عندما تكون الكثير من الحيوات طويلة، ومملة، ومؤلمة؟ إنه الفهم التراجيدي الذي يعلمنا قوة الكوميديا التي إن لم تكن كذلك فستكون سطحية وقاسية، وإذا ما وجد الكبار في السن أن هذا جدياً أكثر مما يجب، فذلك لأنهم أكثر خوفاً وجبناً من أن يكونوا على قدر جدية أطفالهم وهم يلعبون.

[100]

الأبطال والبطلات التراجيديون وحدهم من لا يشعر بالذنب اتجاه أفعالهم، أو يدينوا أقدارهم، وبهذا فإنهم يحولون قدره الطفل على خلق القيم إلى مسؤولية عن العدالة، وهنا يصبح السامي عملياً.

[101]

يثير اللاشيء انتباهنا إلى التراجيديا، وتجنبها سيعيدنا إلى السطحية والتطرف، والسطحية تتحول إلى تطرف عندما ييأس الحدس «الحس»، والتطرف الجماعي أو الفردي هو متعة تسليم المسؤولية للاشيء – للعدمية. الإيمان دوماً هو إيمان باللاشيء، وهذا ما يعطيه الإدانة بقوة كقوة قبضة ميت.

[102]

يواجه الخيال في الدراما أو يتحدى ذاته، وعندما يحصل ذلك (يفعل ذلك)، فإنه يذهب إلى الحواف لأنه يتذكر اللاشيء، الحيز الذي ترغب الذات في دخوله بإنسانيتها، وتتطلب قوتنا هذا، فيما يدفعنا ضعفنا للاختباء في السلطة.

[103]

الاستبداد والديمقراطية الغربية غير مستقران، لأنهما مؤسسان على ضعفنا، والضعف مفتوح للاختراق، لكن ينتج القليل كرد فعل لهذا الاختراق (ومقاومته ضئيلة)، والضعفاء يفتقرون للهشاشة، لأنهم يحمون أنفسهم بالقوة والمساوقة أو الخضوع والتطرف، والهشاشة تجعل من التغير والإبداع ضرورة، (والقوة وحدها هي التي تتمتع بالهشاشة)، وبهذا المعنى تصبح القوة نفسها هشة.

[104]

المشكلة في مجتمعنا هي أن المعلمين لا يعرفون.

[105]

لا يمكن اختبار الخيال إنما يمكن إدراكه.

[106]

رجوعنا إلى أصول لغتنا يبدو كالسحر، أي أن تظهر لغة أصولنا كما لو كانت سحراً.

[107]

قد يكون خيال الطفل وافراً، ومحتاراً، ومصدوماً، فهو يقرأ ولا يُقرأ، لأنه يواجه اللاشيء الذي لا يمكن قراءته. وأكثر مما تمنحه الأحداث والأشياء، فإن حدود اللاشيء تمنح الخيال اهتمامه للعالم. في الخيال زخم البقاء ومعرفة التراجيديا.

[108]

إلى أن يدعي الجسد العقل للحياة، يعبر الأطفال بحرية بين الموت والحياة، فالحدود ليست عائقاً أمامهم. كلما كبرنا علينا أن نتذكر.

[109]

براءة الطفل الراديكالية تتقبل المسؤولية عن العالم، فلو كانت عقولنا قادرة على أن تكون لا واعية ومؤتمتة حتى لحظة البلوغ الذي سنصبح عندها واعين ومدركين لأنفسنا، لما كانت لدينا مشاكل، ولكنّا أيضاً بطهارة الآلات، ولكن لن نكون بشراً. وإذا ما نجح خيال الطفل في البقاء خلال نموه، فإن براءته الراديكالية ستؤمّن من الفساد. ولا يمكن لنا أن نفقد براءتنا كلياً، ولكن التعليم لا يحاول تعليمنا ذلك. التدريس الرسمي، والاختلاط الاجتماعي الرسمي، يخلقان اللاشخص – تمثال تظهر تفاصيله من خلال ما لف به (ضمادة).

[110]

لا يوجد ما هو بقدر كرامة طفل باكٍ.

[111]

يمسرح المسرح الخيال بأحداث صغيرة لا تبدو ذات دلالة، وبأحداث واضحة الدلالة، وليس بمقدور الدراما أن تلقن، بل تواجه، وتخلق الوفرة، وتحرض الخيال على إعادة خلق الواقع. ولا يمكن لهذه العملية أن تتخذ منحى منتظماً ومعمماً، فلو كان ذلك ممكناً، لاستخدمته السلطة لتثبيت الملكية. يقدم الفن اللاشيء خاصاً به،

لكنه يعرف كل شيء آخر، ومواجهاته تدفع بعض الناس إلى رد فعل أعمق، وعندها على هؤلاء أن يتحملوا المسؤولية عنه، وأن لا يتركوها للسلطة.

[112]

يمسرح المسرح البنى الأساسية للمجتمع، ولا توجد أجوبة صحيحة لأسئلته على الرغم من وجود أجوبة خاطئة كثيرة، فهي تضعنا جميعاً في موضع «لير» و«هاملت» و«ماكبث» و«أوديب» و«انتغوني» و«هسكيا» و«كساندرا» و«ميريا»، وهذه جميعها مواقف تجعل الخيال يسعى ويبحث عن براءته ومرتداً لها، ويصبح مسؤولاً عن العالم، وهي مواقف ليس من السهل التصرف بها بشكل إنساني. وعندما يفعل خيالنا ذلك، فإنما يفعله على حساب ذواتنا، وفي الحقيقة على حساب أن نكون أنفسنا. تعالج السلطة هذه المواقف بإصدار أوامر، أو بخطاب السلطات المتسامية، وكلاهما حالتان من التجنب للموقف. ولكي نكون إنسانيين، علينا مواجهة تلك المواقف، فعندما نموت، لا يمكننا أن نقارب ممكنات ذواتنا، أو نحيا.

[113]

في الوقت الراهن يقف الإنسان بين الغرائز والحرية، والخيال يحررنا من الغرائز، وعندما تسلب السلطة مسؤولية خيالنا، فإنها تمسخنا على حالة (أشباه حيوانات وليس حيوانات) وتحولنا إلى الغريزة بلا كوابح غريزية. وعندما يمتلك شيء يمتلك كل شيء، ولا يمكننا أن نصبح أحراراً وإنسانيين ما لم يصبح الخيال مستقلاً عبر الحياة. والعالم الذي عادة ما كنت أصفه هنا هو عالم كئيب، وتراجيدي، ومليء بالمعاناة غير الضرورية. كصحراء من الرماد وريح رمادية نحن نحيا في ثقافة موت، ونقدم للموت أسلحة رهيبة . . وأكثرها رعباً هو الجهل.

[انتهى]

الهوامش

[1] اللاشيء: (Nothingness) عند إدوارد بوند هو سلسلة الأوهام المتعاقبة في الذهن التي تجعل العالم والنفس الإنسانية مفهومة بالنسبة لنا، وهي من نتاج التخيلي للإنسان.

[2] يضاعف الكلمة المستخدمة للإيحاء بالمضاعفة، وهي مأخوذة من العملية الرياضية الرفع للقوة.

من إحدى فعاليات روضة مدرسة النجاح.